تفسير سورةُ الفرقان
من آية (68) إلى آية (77)
اللقاء العاشر والأخير

المعنى الإجمالي من آية (60) إلى آية (67):

يخبرُ الله تعالى عن جهالاتِ المشركينَ وسخافاتِهم، فيقول: وإذا قيل لهؤلاء المشركين: اسجُدوا للرَّحمنِ، قالوا: لا نَعرِفُ الرَّحمنَ! أنسجُدُ لِما تأمُرُنا أنت أن نسجُدَ له مِن غيرِ أن نَعرِفَه، ومِن غيرِ أن نُؤمِنَ به؟ وزادهم الأمرُ بالسُّجودِ للرَّحمنِ نُفورًا عن الإيمانِ. ثمَّ يرُدُّ الله سبحانه عليهم بما يدُلُّ على عظيمِ قدرتِه، فيقولُ: تعاظَمَ اللهُ وجلَّ شأنُه وكثُرتْ خيراتُه؛ فهو الذي جعَل في السَّماءِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ، وخلَق فيها شَمسًا مُشرِقةً وقَمرًا مُضيئًا، وهو الذي جعل اللَّيلَ والنَّهارَ مُتعاقِبَين يخلُفُ أحدُهما الآخَرَ، لِمَن أراد أن يتَّعِظَ ويعتبِرَ، أو أراد شُكرَ اللهِ على نِعَمِه التي لا تُحصى.

يقولُ تعالى مبيِّنًا صفاتِ عِبادِه المؤمنينَ: وعِبادُ الرَّحمنِ هم الذين يَمشونَ على الأرضِ بسَكينةٍ ووَقارٍ ولِينٍ، وإذا خاطَبَهم السُّفَهاءُ بالسَّيِّئِ مِن القَولِ لم يُقابِلوهم بالمِثْلِ، بل قابَلوهم بالقَولِ الطيِّبِ، وهم الذين يُصَلُّون لله في اللَّيلِ ساجِدينَ وقائِمينَ، والذين يقولونَ خَوفًا مِن عِقابِ رَبِّهم: ربَّنا أبعِدْ عنَّا عذابَ جهنَّمَ؛ إنَّ عذابَها كان مُهلِكًا ومُلازِمًا لأهلِ النَّارِ لا يُفارِقُهم، إنَّها قَبُحَت مَنزِلًا ومُقامًا لِمن يُقيمُ فيها.

والذين إذا أنفَقوا لم يُبذِّروا ولم يُضيِّقوا ويَبخَلوا، وكان إنفاقُهم وسَطًا بيْنَ الإسرافِ والتَّقتيرِ.

صفات عباد الرحمن، وهي إحدى عشرة صفة (التفسير المنير):

❶التواضع والطاعة لله تعالى. ❷ الحلم والكلام الطيب. ❸التهجّد ليلا. ❹الخوف من عذاب الله تعالى. ❺الاعتدال في الإنفاق. ❻ البعد عن الشرك بالله ❼اجتناب القتل. ❽اجتناب الزنى. ❾ تجنب الكذب والباطل وشهادة الزور. ❿قبول المواعظ. ❶❶الابتهال إلى الله تعالى.

(أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ)

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ﴿68﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه ما تَخَلَّوا به مِن أصولِ الطَّاعاتِ بما لهم مِن العَدلِ والإحسانِ بالأفعالِ والأقوالِ في الأبدانِ والأموالِ؛ أتبَعَه ما تَخَلَّوا عنه مِن أمَّهاتِ المعاصي التي هي الفَحشاءُ والمنكَرُ

هذا شروعٌ في نفي أُمَّهاتِ المعاصي عنهم بعدَما أثبَت لهم أصولَ الطاعاتِ؛ إظهارًا لكمالِ إيمانِهم، وتنبيهًا على أنَّ الإيمانَ الكاملَ هو ما تثبتُ معه الطاعاتُ، وتنْتَفي المعاصي، وذلك هو غايةُ الامتثالِ للأوامرِ والنَّواهي، وإشعارًا بأنَّ الأجرَ المذكورَ موعودٌ للجامعِ بينَ ذلك. الدرر السنية

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) أي: والذين لا يَدْعون مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ، بل يُخلِصون العبادةَ للهِ وحْدَه، ولا يُشرِكون به شَيئًا. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: (ولَا يَدْعُونَ... يعني: لا يدْعون دعاءَ مسألةٍ، ولا يَدْعون دعاءَ عبادةٍ).

1- دعاء المسألة، وهو طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضر، بأن يسأل الله تعالى ما ينفعه في الدنيا والآخرة، ودفع ما يضره في الدنيا والآخرة.

كالدعاء بالمغفرة والرحمة، والهداية والتوفيق، والفوز بالجنة، والنجاة من النار، وأن يؤتيه الله حسنة في الدنيا، وحسنة في الآخرة ... إلخ.

2- دعاء العبادة، والمراد به أن يكون الإنسان عابداً لله تعالى، بأي نوع من أنواع العبادات، القلبية أو البدنية أو المالية، كالخوف من الله ومحبة رجائه والتوكل عليه، والصلاة والصيام والحج، وقراءة القرآن والتسبيح والذكر، والزكاة والصدقة والجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..... إلخ.

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: أيُّ الذنبِ عند الله أكبَرُ؟ قال: أن تجعَلَ لله ندًّا وهو خلَقَك. قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ثمَّ أن تقتُلَ ولَدَك خَشيةَ أن يَطعَمَ معك، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أن تُزانيَ بحَليلةِ جارِك. قال: ونزَلَت هذه الآيةُ تصديقًا لِقَولِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ) رواه البخاري.

(وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) أي: ولا يَقتُلون مَن حرَّم اللهُ قَتْلَهم إلَّا بسبَبٍ شَرعيٍّ يخوِّلُ قَتْلَهم. موسوعة التفسير

قال ابنُ عثيمين: (والنَّفسُ التي حرَّم اللهُ: أربعةُ أنفُسٍ: المسلمُ، والذمِّيُّ، والمعاهَدُ، والمستأمِنُ. هذه هي الأنفُسُ التي حرَّم اللهُ، فهذه الأربعةُ أنفُسٍ مُحرَّمةٌ).

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وأنِّي رَسولُ اللَّهِ، إلَّا بإحْدَى ثَلاثٍ: النَّفْسُ بالنَّفْسِ، والثَّيِّبُ الزَّانِي، والمارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَماعَةِ)) رواه البخاري.

قال -ﷺ-: " مَن قَتَلَ مُعاهَدًا لَمْ يَرِحْ رائِحَةَ الجَنَّةِ، وإنَّ رِيحَها تُوجَدُ مِن مَسِيرَةِ أرْبَعِينَ عامًا" صحيح البخاري.

قال ابن باديس: قامتِ الشَّريعةُ على المحافظةِ على حقوقِ اللهِ وحقوقِ عبادِه، وحَقُّ اللهِ على عبادِه أنْ يَعبُدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا، فمَن دعا مع اللهِ غيرَه، وأشركَ به سِواه فقد أبطَلَ حقَّ اللهِ، وأعدمَ عبادتَه، ومَن قتَلَ النَّفْسَ فقد تعدَّى على أولِ حقٍّ جَعَلَه اللهُ لعبادِه بفضلِه -وهو حقُّ الوجودِ- وعَمِلَ على إبطالِ وجودِهم، وفناءِ نوعِهم، وزوالِ عبادتِهم؛ فلهذا قُرِنَ قَتلُ النَّفسِ بدعاءِ غيرِ اللهِ معه.

بل لقد جعل الله قتل نفس واحدة بغير حق، كقتل الناس جميعاً، واحياءها كإحياء الناس جميعاً، فقال تعالى: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» [المائدة: 32]، قال ابن عباس: المعنى: من قتل نفساً واحدة، وانتهك حرمتها، فهو مثل من قتل الناس جميعاً. ومن ترك قتل نفس واحدة، وصان حرمتها، واستحياها، خوفاً من الله، فهو كمن أحيا الناس جميعاً.

قال -ﷺ-: " أَوَّلُ ما يُقْضَى بيْنَ النَّاسِ بالدِّماءِ" صحيح البخاري. قال -ﷺ-: " لَنْ يَزَالَ المُؤْمِنُ في فُسْحَةٍ مِن دِينِهِ، ما لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا" صحيح البخاري. وقال -ﷺ-: "لزوالُ الدنيا أهونُ على اللهِ مِنْ قتلِ رجلٍ مسلمٍ".

نظرَ ابنُ عُمرَ يومًا إلى الكعبةِ فقال: ما أعظَمَكِ! وما أعظَمَ حُرْمَتَك! والمؤمِنُ أعظمُ حُرْمةً عند اللهِ مِنْكِ.

حفظ الدين والنفس والعرض والعقل والنسل من مقاصد الإسلام، أن يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وعقولهم وأنسابهم وأموالهم.

(وَلَا يَزْنُونَ) أي: ولا يقَعونَ في الزِّنا فيأتونَ الفَرْجَ الحرامَ بلا نِكاحٍ ولا مِلكِ يَمينٍ. موسوعة التفسير

قال القرطبي: دلَّت هذه الآيةُ على أنَّه ليس بعْدَ الكُفرِ أعظَمُ مِن قَتلِ النَّفسِ بغيرِ الحَقِّ، ثمَّ الزِّنا؛ ولهذا ثَبَت في حَدِّ الزِّنا القَتلُ لِمَن كان مُحصَنًا، أو أقصَى الجَلدِ لِمن كان غيرَ مُحصَنٍ.

لَمَّا كَانَ مَيلُ الرَّجُلِ إلى المرأَةِ، وَالمرأَةِ إلى الرَّجُلِ قَوِيًّا، وَكَانَ الشَّيطَانُ يَجرِي مِن ابنِ آدَمَ مَجرَى الدَّمِ، وَهُوَ أَحرَصُ ما يَكُونُ عَلَى أَن يَلتَقِيَ الرِّجَالُ بِالنِّسَاءِ لِقَاءً غَيرَ شَرعِيٍّ، فَيَحصُلُ مِن ذَلِكَ في النِّهَايَةِ الزِّنَا، الَّذِي هُوَ شَرُّ الشَّهَوَاتِ الَّتِي تَفتِكُ بِالمجتَمَعَاتِ؛ لِذَلِكَ كُلِّهِ فَقَد حَذَّرَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ- مِن هَذِهِ الفِتنَةِ، وَجَاءَتِ الشَّرِيعَةُ بِضَمَانَاتٍ كَثِيرَةٍ تَقِي مِنَ الزِّنَا، وَتُبعِدُ كُلاًّ مِنَ الجِنسَينِ عَنِ الفُجُورِ وَالخَنَا، قَالَ -ﷺ-: "مَا تَرَكتُ بَعدِي فِتنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ"(مُتَّفَقٌ عَلَيهِ).

وَمِنَ الضَّمَانَاتِ الَّتِي جَاءَت بِهَا الشَّرِيعَةُ لِتَطهِيرِ المجتَمَعِ وَحِفظِهِ مِنَ الزِّنَا: أَمرُ المؤمِنِينَ وَالمؤمِنَاتِ بِغَضِّ البَصَرِ، قَالَ -تَعَالَى-: (قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) [النور:30-31].

وَكَمَا جَاءَ الأَمرُ بِغَضِّ البَصَرِ فَقَد جَاءَ النَّهيُ عَمَّا هُوَ أَعظَمُ، وَهُوَ الخَلوَةُ بِالمرأَةِ الأَجنَبِيَّةِ، قَالَ -ﷺ-: "لا يَخلُوَنَّ أَحَدُكُم بِامرَأَةٍ إِلاَّ مَعَ ذِي مَحرَمٍ"(مُتَّفَقٌ عَلَيهِ)، وَقَالَ -ﷺ-: "إِيَّاكُم وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ"

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنصَارِ: أَفَرَأَيتَ الحَمْوَ؟ قَالَ: "الحَمْوُ الموتُ"(مَتَّفَقٌ عَلَيهِ)، وَقَالَ -ﷺ-: "لا يَخلُوَنَّ رَجُلٌ بِامرَأَةٍ إِلاَّ كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيطَانُ"(رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ الأَلبَانِيُّ).

وَمِمَّا حُرِّمَ -وَهُوَ أَعظَمُ مِن مُجَرَّدِ النَّظَرِ وَالخَلوَةِ- مَسُّ المرأَةِ الأَجنَبِيَّةِ، قَالَ -ﷺ-: "لأَن يُطعَنَ فِي رَأسِ أَحَدِكُم بِمِخيَطٍ مِن حَدِيدٍ خَيرٌ لَهُ مِن أَن يَمَسَّ امرَأَةً لا تَحِلُّ لَهُ"(رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَغَيرُهُ وَصَحَّحَهُ الأَلبَانِيُّ)، وَكَانَ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ أَتقَى خَلقِ اللهِ وَأَعلَمُهُم بِهِ وَأَخوَفُهُم مِنهُ- لا يُصَافِحُ النِّسَاءَ.

وكذلك نَهيُ المرأَةِ أَن تُسَافِرَ إِلاَّ مَعَ ذِي مَحرَمٍ، قَالَ -ﷺ-: "لا تُسَافِرِ المرأَةُ إِلاَّ مَعَ ذِي مَحرَمٍ، وَلا يَدخُلْ عَلَيهَا رَجُلٌ إِلاَّ وَمَعَهَا ذُو مَحرَمٍ"(رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسلِمٌ).

وَمِنَ الضَّمَانَاتِ الوَاقِيَةِ مِنَ الزِّنَا: نَهيُ المرأَةِ عَنِ التَّبَرُّجِ وَالسُّفُورِ، وَالخُضُوعِ فِي القَولِ، وَالخُرُوجِ مِن بَيتِهَا لِغَيرِ حَاجَةٍ، وَضَربِهَا بِرِجلِهَا لِيَظهَرَ صَوتُ خَلخَالِهَا، وَإِبدَائِهَا زِينَتَهَا لِلأَجَانِبِ عَنهَا، وَخُرُوجِهَا مُتَطَيِّبَةً وَلَو لِلمَسجِدِ.

بَلَ لَقَد بَلَغَ حِرصُهُ -ﷺ- عَلَى مَنعِ كُلِّ مَا يَدعُو إِلَى الزِّنَا إِلَى أَن شَرَعَ الفَصلَ بَينَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ حَتَّى فِي العِبَادَةِ وَالعِلمِ؛ فَرَغَّبَ النِّسَاءَ فِي الصَّلاةِ فِي بُيُوتِهِنَّ، وَأَن يَكُنَّ مِن وَرَاءِ الرِّجَالِ وَحدَهُنَّ إِذَا حَضَرنَ إِلَى المسجِدِ، بَل وَقَالَ: "خَيرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَ"(رَوَاهُ مُسلِمٌ)، وَعَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ-: قَالَتِ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ -ﷺ-: غَلَبَنَا عَلَيكَ الرِّجَالُ، فَاجعَلْ لَنَا يَومًا مِن نَفسِكَ، فَوَعَدَهُنَّ يَومًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ..." الحَدِيثَ.

وَمِنَ الضَّمَانَاتِ الوِقَائِيَّةِ لِلمُجتَمَعِ مِن شُيُوعِ الفَاحِشَةِ: فَرضُ الحِجَابِ عَلَى النِّسَاءِ، قَالَ -تَعَالى-: (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) [النور:31]، وَقَالَ -تَعَالى-: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ) [الأحزاب:59].

وَمِنَ الضَّمَانَاتِ الَّتِي جَاءَت بِهَا الشَّرِيعَةُ لَكَفِّ الزِّنَا وَالبِغَاءِ: تَحرِيمُ المزَامِيرِ وَالغِنَاءِ؛ إِذِ الغِنَاءُ هُوَ بَرِيدُ الزِّنَا، وَرَائِدُ الفُجُورِ وَخَمرُ العُقُولِ، وَهُوَ رُقيَةُ الشَّيطَانِ الَّتِي يَستَمِيلُ بِهَا القُلُوبَ لِلمُنكَرِ، وَيُؤَجِّجُ فِيهَا الشَّهَوَاتِ وَيُهَيِّجُهَا، وَيُثِيرُ كَوَامِنَ النُّفُوسِ وَيُوقِدُ فِيهَا لَوَاعِجَ الشَّوقِ وَالغَرَامِ.

هذه أكبَرُ الكبائرِ، وأعظَمُها ضَررًا، وأشَدُّها فسادًا للعالَمِ، وإذا تأمَّلَ العاقِلُ فَسادَ الوجودِ رآه مِن هذه الجِهاتِ الثَّلاثِ، وهي: الكفرُ، ثم قتلُ النفْسِ بغَيرِ الحقِّ، ثمّ الزنا، كما رتَّبها الله؛ فالشِّركُ فيه فَسادُ الأديانِ، والقَتلُ فيه فَسادُ الأبدانِ، والزِّنا فيه فَسادُ الأعراضِ. الدرر السنية

قال ابن القيم: أصولُ المعاصي كلِّها؛ كبارِها وصغارِها، ثلاثةٌ: تعلُّقُ القلبِ بغيرِ الله، وطاعةُ القوَّةِ الغضبيَّةِ، والقوَّةِ الشَّهوانيَّةِ، وهي: الشِّركُ، والظُّلْمُ، والفواحِشُ؛ فغايةُ التعلُّقِ بغيرِ الله شِركٌ، وأن يُدعَى معه إلهٌ آخَرُ، وغايةُ طاعةِ القوَّةِ الغضبيَّةِ القَتلُ، وغايةُ القوةِ الشهوانيَّةِ الزِّنا؛ ولهذا جمَع الله سُبحانَه بينَ الثلاثةِ..... فهذه الثلاثةُ يجُرُّ بعضُها إلى بعضٍ، ويأمُرُ بعضُها ببعضٍ؛ ولهذا كلَّما كان القلبُ أضعَفَ توحيدًا وأعظَمَ شِركًا، كان أكثَرَ فاحشةً، وأعظَمَ تعلُّقًا بالصُّوَرِ وعِشقًا لها.

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا) أي: ومَن يفعَلْ تلك الأفعالَ؛ مِن الشِّركِ باللهِ، وقَتلِ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ، والزِّنا- يجِدْ جزاءَه وعِقابَه في الآخرةِ. موسوعة التفسير

﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ ﴿69﴾

(يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي: يُغلِّظِ اللهُ له عذابَه يومَ القيامةِ ويُكرِّرْه. موسوعة التفسير

قال ابن باديس: يُذَكِّرُنا القرآنُ بمضاعَفةِ العذابِ على كبائرِ الآثامِ؛ لِنَذكُرَ عندما تُحدِّثُنا أنفُسُنا بالمعصيةِ سوءَ عاقبتِها، وتَعَدُّدَ شرورِها، وتَشَعُّبَ مفاسِدِها، ومُضاعَفةَ العذابِ بحسَبِ ذلك عليها؛ لِنَزدجِرَ ونَنكَفَّ، فنَسلَمَ مِن الشَّرِّ المتراكِمِ، والعذابِ المضاعَفِ، ونفوزَ بأجرِ التذكُّرِ، وثمرةِ التذكيرِ.

(وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا) أي: ويَبْقَ المشرِكُ العاصي في العذابِ المضاعَفِ إلى الأبَدِ ذَليلًا حَقيرًا. موسوعة التفسير

قال السعدي: (الوعيدُ بالخلودِ لمن فعلها كلَّها ثابتٌ لا شكَّ فيه، وكذا لمن أشرَكَ باللهِ، وكذلك الوعيدُ بالعذابِ الشديدِ على كلِّ واحدٍ مِن هذه الثلاثةِ؛ لكونِها إمَّا شركٌ وإما مِن أكبرِ الكبائرِ، وأمَّا خلودُ القاتلِ والزاني في العذابِ، فإنَّه لا يتناوَلُه الخلودُ؛ لأنَّه قد دلَّت النصوصُ القرآنيةُ والسنَّةُ النبويَّةُ أنَّ جميعَ المؤمنينَ سيخرجون من النارِ، ولا يخلدُ فيها مؤمنٌ ولو فعَل مِن المعاصي ما فعَل).

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿70﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن باديس: لَمَّا ذَكَرَ تعالى عظائمَ الذنوبِ وأكبرَ كبائرِها، وتَوَعَّدَ بالوعيدِ الشَّديدِ عليها؛ عَقَّبَها بذِكْرِ التوبةِ منها، ورَغَّبَ فيها؛ لِيُنَبِّهَ عِبادَه على طريقِ الرجوعِ إليه، وأنَّ مَن تاب منهم إلى اللهِ تاب اللهُ عليه.

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) أي: إلَّا مَن تاب مِن الشِّركِ وقتْلِ النَّفسِ المحرَّمةِ والزِّنا، فنَدِمَ على ذلك وأقلَعَ عنه، وآمَنَ بما وجَبَ عليه الإيمانُ به، وعَمِلَ أعمالًا صالِحةً بإخلاصٍ لله ومُتابعةٍ لِرَسولِه- فأولئك يجعَلُ اللهُ مكانَ سَيِّئاتِهم حَسَناتٍ بفَضلِه ورَحمتِه. موسوعة التفسير

قال ابن باديس: رُوعِيَتِ الحالةُ الأُولى فذُكِرَتِ التَّوبةُ، والثَّانيةُ فذُكِرَ الإيمانُ، والثَّالثةُ فذُكِرَ العملُ الصَّالحُ؛ لأنَّ العاصيَ يكونُ في غَمَراتِ مَعصيتِه، فإذا ذَكَرَ اللهَ، ووفَّقَه اللهُ، أَسِفَ على حالِه، ورجَعَ إلى ربِّه، وهذه أوَّلُ الدَّرجاتِ في تَوبتِه، فإذا استشعَرَ قلْبُه اليقينَ، واطمأنَّ قلْبُه بذِكْرِ اللهِ؛ صمَّمَ على الإعراضِ عن المعصيةِ، والإقبالِ على الطَّاعةِ، فإذا كان صادقًا في هذا العزمِ، فلا بُدَّ أن يَظهَرَ أثرُ ذلك على عمَلِه.

دَلالةٌ على أنَّ المنتَقِلَ مِن الضَّلالِ إلى الهُدى يُضاعَفُ له الثَّوابُ.

قال السعدي: (تتبدَّلُ أفعالُهم وأقوالُهم التي كانت مُستَعِدَّةً لعملِ السيِّئاتِ، تتبدَّلُ حَسَناتٍ، فيتبدَّلُ شِركُهم إيمانًا، ومعصيتُهم طاعةً، وتتبدَّلُ نفْسُ السيِّئاتِ التي عمِلوها ثمَّ أحدَثوا عن كلِّ ذنْبٍ منها توبةً وإنابةً وطاعةً، تُبدَّلُ حسناتٍ كما هو ظاهِرُ الآيةِ، وورد في ذلك حديثُ الرجُلِ الذي حاسبه اللهُ ببعضِ

ذنوبِه فعدَّدها عليه، ثم أُبدِلَ مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، فقال: يا ربِّ، إنَّ لي سيئاتٍ لا أراها هاهنا. واللهُ أعلمُ).

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنِّي لأعلَمُ آخِرَ أهلِ الجنَّةِ دُخولًا الجنَّةَ، وآخِرَ أهلِ النَّارِ خُروجًا منها: رجُلٌ يؤتَى به يومَ القيامةِ، فيُقالُ: اعرِضوا عليه صِغارَ ذُنوبِه، وارفَعوا عنه كِبارَها، فتُعرَضُ عليه صِغارُ ذُنوبِه، فيُقال: عَمِلتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وعَمِلتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، فيقولُ: نعَمْ، لا يَستطيعُ أن يُنكِرَ، وهو مُشفِقٌ مِن كِبارِ ذُنوبِه أن تُعرَضَ عليه، فيُقالُ له: فإنَّ لك مكانَ كُلِّ سَيِّئةٍ حَسَنةً، فيقولُ: ربِّ، قد عَمِلتُ أشياءَ لا أراها هاهنا! فلقد رأيتُ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ضَحِكَ حتى بَدَت نَواجِذُه)) رواه مسلم.

وعن أبي طويلٍ شَطبٍ المدودِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه أتى رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: ((أرأيتَ رجُلًا عَمِلَ الذُّنوبَ كُلَّها، فلم يترُكْ منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترُكْ حاجَةً ولا داجَةً إلَّا أتاها، فهل له مِن توبةٍ؟ قال: فهل أسلَمْتَ؟ قال: أمَّا أنا فأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، وأنَّك رَسولُ الله، قال: نعَمْ، تفعَلُ الخَيراتِ، وتَترُكُ السيِّئاتِ، فيَجعَلُهنَّ اللهُ لك خيراتٍ كُلَّهنَّ، قال: وغَدَراتي وفَجَراتي؟! قال: نعَمْ، قال: الله أكبَرُ! فما زال يُكبِّر حتى توارى)) صححه الألباني.

(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) أي: ولم يَزَلِ اللهُ يستُرُ ذُنوبَ التَّائبينَ مِن عبادِه، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها ويَرحَمُهم. موسوعة التفسير

وقال السعدي: (رَحِيمًا بعبادِه؛ حيثُ دعاهم إلى التوبةِ بعْدَ مبارزتِه بالعظائمِ، ثم وفَّقهم لها، ثم قَبِلها منهم).

كما قال تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [الزمر: 53].

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ ﴿71﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن باديس: لَمَّا أفادتِ الآيةُ السابقةُ أنَّ التوبةَ تمحو السيِّئاتِ، جاءتْ هذه الآيةُ إثرَها تُبَيِّنُ ما لأهلِها مِن جزيلِ الإنعاماتِ، وعظيمِ الدرجاتِ

(وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) أي: ومَن تاب إلى اللهِ وعَمِلَ بعْدَ تَوبتِه الأعمالَ الصَّالحةَ، فإنَّه يَرجِعُ إلى اللهِ رُجوعًا صَحيحًا حَسَنًا، مَقبولًا مَرضِيًّا. موسوعة التفسير

قال الرازي: التَّوبةَ الأُولى رجوعٌ عن الشِّركِ والمعاصي، والتَّوبةَ الثَّانيةَ رُجوعٌ إلى اللهِ تعالى للجَزاءِ والمكافأةِ.

قال السعدي: فلْيعلَمْ أنَّ توبتَه في غايةِ الكمالِ؛ لأنَّها رجوعٌ إلى الطريقِ الموصِلِ إلى اللهِ الذي هو عينُ سعادةِ العبدِ وفلاحِه؛ فلْيُخلِصْ فيها، ولْيُخَلِّصْها مِن شوائبِ الأغراضِ الفاسدةِ، فالمقصودُ مِن هذا الحَثُّ

على تكميلِ التوبةِ، وإيقاعُها على أفضلِ الوجوهِ وأَجَلِّها؛ لِيَقدَمَ على مَن تاب إليه فيوفِّيَه أجرَه بحسَب كمالِها.

قال ابن باديس: دعا اللهُ بهذا عبادَه المذنِبينَ حتى لا يَتَسَرَّبَ القنوطُ إلى قلوبِهم -وهو مُحَرَّمٌ عليهم- ولا يَحُولَ بيْنهم وبيْنَ خالقِهم ذنبٌ وإنْ عَظُمَ، ورغَّبَهم في التَوبةِ بأنَّها رجوعٌ إليه وكفَى، وأنَّ الرجوعَ إليه فيه مِن الخَيرِ والشرفِ فوقَ ما تُصَوِّرُه الألفاظُ، فما أحلَمَه مِن ربٍّ كريمٍ، وما أرحمَه بعبادِه المذنِبين! فهذا داعي اللهِ فأجيبوه، وهذا بابُ اللهِ فَلِجُوه؛ فإنَّكم مهما رجعتُم إليه لا تُطرَدوا، ومهما قصَدتُم إليه تُقبَلوا وتُكْرَموا.

كما قال تعالى: وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا [النساء: 110].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [التوبة: 104].

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ ﴿72﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها: قال البقاعي: عَقَّبَ سُبحانه ترْكَهم الزِّنا بالإعراضِ أصلًا عن اللَّغوِ الذي هو أعظَمُ مقَدِّماتِ الزِّنا

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ) أي: والذين لا يَحضُرون شَيئًا مِن الباطِلِ، ويجتنبونَ جميعَ المجالِسِ المشتمِلةِ على أقوالٍ أو أفعالٍ محرَّمةٍ. موسوعة التفسير

وقال ابن عثيمين: (فالزُّورُ: كُلُّ مَيلٍ قوليٍّ أو فعليٍّ؛ إن كان قولًا وُصِف بالكَذِب، وإن كان فِعلًا وُصِف بالباطِلِ. فكلُّ قولٍ أو فعلٍ مائلٍ عن الطريقِ فإنَّه زورٌ؛ فالكَذِبُ زورٌ، والشَّتمُ واللَّعنُ والغِيبةُ زورٌ أيضًا، والغَصبُ والسَّرِقةُ والزِّنا وغيرُ ذلك: زورٌ أيضًا، لكن قد نُسَمِّيه باطلًا إذا كان فِعلًا).

كما قال تعالى: وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [الأنعام: 68].

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا عندَ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: ألَا أُنَبِّئُكم بأكبَرِ الكبائِرِ -ثلاثًا-؟ الإشراكُ باللهِ، وعُقوقُ الوالِدَينِ، وشَهادةُ الزُّورِ أو قَولُ الزُّورِ، وكان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مُتَّكِئًا فجلَسَ، فما زال يُكَرِّرُها حتَّى قُلْنا: لَيْتَهُ سَكَتَ)) رواه مسلم.

(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) أي: وإذا صادَف أنْ مَرُّوا باللَّغوِ فسَمِعوه أو رَأَوْهُ -من غَيرِ قَصدٍ منهم- أعرَضوا عنه، وأكرَموا أنفُسَهم عن الخَوضِ والمشاركةِ فيه. موسوعة التفسير

قال السعدي: (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ وهو الكلامُ الذي لا خيرَ فيه، ولا فيه فائِدةٌ دينيَّةٌ ولا دنيويَّةٌ؛ ككلامِ السفهاءِ ونحوِهم).

وقال ابن عثيمين: (قولُه: وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ اللَّغوُ الصوابُ أنَّه ليس الكلامَ القبيحَ؛ لأنَّ الكلامَ القبيحَ داخِلٌ في الزُّورِ، لكنِ المرادُ باللَّغوِ: ما لا فائدةَ فيه، فكلُّ ما لا فائدةَ فيه فهو لَغْوٌ؛ وذلك لأنَّه لا يُقصَدُ،

وما لا يُقصدُ فهو لَغْوٌ، لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ [المائدة: 89]، فاللَّغوُ ما لا فائدةَ فيه؛ سواءٌ كان قولًا أو فعلًا).

قال الرسعني: (مَرُّوا كِرَامًا أي: مرُّوا مرَّ الكرماءِ، مُعرضينَ عنهم، مُكرمينَ أنفسَهم عن التوقُّفِ عليهم، والخوضِ معهم؛ كقوله تعالى: وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ [القصص: 55]).

وقال البقاعي: (مَرُّوا كِرَامًا أي: آمِرينَ بالمعروفِ، ناهينَ عن المنكَرِ -إن تعلَّقَ بهم أمرٌ أو نهيٌ- بإشارةٍ أو عبارةٍ، على حسَبِ ما يَرَونَه نافعًا، أو مُعرِضينَ إن كان لا يصلُحُ شَيءٌ من ذلك؛ لإثارةِ مَفسدةٍ أعظَمَ مِن ذلك أو نحوِه؛ رحمةً لأنفُسِهم وغيرِهم).

كما قال تعالى: (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) [القصص: 55].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ﴿72﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن باديس: لَمَّا وَصَفَهم سبحانَه -فيما تَقَدَّمَ- بإعراضِهم عن الباطلِ، ومجانبتِهم لأهلِه، وبُعْدِهم عنه؛ وَصَفَهم هنا بإقبالِهم على الحقِّ، وإكبابِهم عليه، متفهِّمِينَ مُستبصِرِينَ

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) أي: والذين إذا ذكَّرهم مُذَكِّرٌ بآياتِ رَبِّهم، لم يُقابِلوها بالإعراضِ عنها، والصَّمَمِ عن سَماعِها، وصَرفِ النَّظَرِ والقلوبِ عنها، كالكُفَّارِ الذين إن ذُكِّروا بها أنكَروا وكَذَّبوا، وأقاموا على كُفرِهم، كأنَّهم لا يَسمَعونَ ولا يُبصِرونَ. موسوعة التفسير

وقال الشوكاني: (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ أي: بالقرآنِ، أو بما فيه موعظةٌ وعِبرةٌ).

كما قال سبحانه وتعالى: (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) [السجدة: 15].

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ﴿73﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن باديس: لَمَّا وَصَفَهم سبحانه في الآياتِ المتقدِّمةِ بما دلَّ على أنَّهم أهلُ خَيرٍ وكمالٍ في أنفُسِهم؛ وَصَفَهم في هذه بما دلَّ على محبَّتِهم الخَيرَ والكمالَ لغَيرِهم مِن قرابتِهم: أزواجِهم، وذُرِّيَّتِهم، ومَن سِواهم

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ) أي: والذين يَدْعُونَ اللهَ قائلينَ: ربَّنا أصلِحْ أزواجَنا وأولادَنا وأحفادَنا، فنُسَرَّ في الدُّنيا برُؤيتِهم على طاعتِك، وفي الآخرةِ بدُخولِ جَنَّتِك. موسوعة التفسير

وقال الرازي: (فيه وجهان؛ أحدُهما: أنَّهم سألوا أزواجًا وذرِّيَّةً في الدُّنيا يُشارِكونهم، فأحَبُّوا أن يكونوا معهم في التمسُّكِ بطاعةِ الله، فيَقْوى طمَعُهم في أن يَحصُلوا معهم في الجنَّةِ؛ فيَتكامَلَ سرورُهم في الدُّنيا بهذا الطمعِ، وفي الآخرةِ عندَ حصولِ الثَّوابِ. والثَّاني: أنَّهم سألوا أن يُلحِقَ اللهُ أزواجَهم وذريَّتَهم بهم في الجنَّةِ؛ لِيَتِمَّ سرورُهم بهم).

(وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) أي: واجعَلْنا قُدوةً للذين يمتَثِلونَ أوامِرَك، ويجتَنِبونَ نواهيَك، فيَقتَدون بنا في الخَيرِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: (من المعلوم أنَّ الدُّعاءَ بحُصولِ شَيءٍ: دُعاءٌ به وبما لا يَتِمُّ إلَّا به، وهذه الدَّرَجةُ دَرَجةُ الإمامةِ في الدِّينِ التي لا تَتِمُّ إلَّا بالصَّبرِ واليَقينِ، كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ [السجدة: 24] ، فهذا الدُّعاءُ يَستلزِمُ مِن حُصولِ الأعمالِ الصَّالحةِ، والصَّبرِ على طاعةِ الله، وعن معصيتِه، وعلى أقدارِه المؤلِمةِ، ومن العِلمِ النَّافِعِ التامِّ الرَّاسخِ الذي يُوصِلُ صاحِبَه إلى درجةِ اليَقينِ- خَيرًا كثيرًا، وعَطاءً جزيلًا).

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ [السجدة: 24].

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ ﴿75﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا عَدَّدَ سُبحانَه صِفاتِ المتَّقينَ المخلِصينَ؛ بَيَّنَ بعْدَ ذلك أنواعَ إحسانِه إليهم، وهي مجموعةٌ في أمْرينِ: المنافعِ، والتَّعظيمِ؛ فالمنافِعُ في قَولِه تعالى: أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا، والتعظيمُ في قَولِه تعالى: وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا

(أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا) أ أي: عِبادُ الرَّحمنِ المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ يُثيبُهم اللهُ الغُرَفَ العاليةَ في الجَنَّةِ؛ بسبَبِ صَبرِهم في الدُّنيا. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ [الزمر: 20].

قال القرطبي: (أُولَئِكَ خبرُ «عِبَادُ الرَّحْمَنِ» ... وما تخلَّل بيْن المبتدأِ وخبَرِه أوصافُهم مِن التحلِّي والتخلِّي، وهي إحدى عَشْرةَ: التواضُعُ، والحِلمُ، والتهجُّدُ، والخوفُ، وتركُ الإسرافِ والإقتارِ، والنزاهةُ عن الشِّركِ والزِّنا والقتلِ، والتوبةُ، وتجنُّبُ الكَذِب، والعفوُ عن المسيءِ، وقَبولُ المواعظ، والابتهالُ إلى الله).

(وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا)

مُناسَبتُها لِما قَبلَها: قال الشربيني: لَمَّا كان المنزِلُ لا يَطيبُ إلَّا بالكرامةِ والسَّلامةِ؛ قال تعالى

(وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا) أي: ويُستقبَلُ عِبادُ الرَّحمنِ في الغُرَفِ بالتحيَّةِ والسَّلامِ عليهم. موسوعة التفسير

وقال السعدي: (وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا مِن رَبِّهم، ومِن ملائكتِه الكرامِ، ومِن بعضٍ على بعضٍ، ويَسلَمونَ مِن جميعِ المنَغِّصاتِ والمكَدِّراتِ).

وقال البقاعي: (فِيهَا تَحِيَّةً أي: دُعاءً بالحياةِ مِن بعضِهم لبعضٍ، ومِن الملائكةِ الذين لا يُرَدُّ دعاؤُهم، ولا يُمترَى في إخبارِهم؛ لأنَّهم عن الله يَنطِقون، وذلك على وجهِ الإكرامِ والإعظامِ مكانَ ما أهانَهم عبادُ الشيطان. وَسَلَامًا أي: مِن الله، ومِن الملائكة وغيرِهم، وسلامةً مِن كلِّ آفةٍ مكانَ ما أصابوهم بالمصائبِ).

كما قال عزَّ وجلَّ: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ [الأحزاب: 44].

وقال تعالى: وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ [الرعد: 23، 24].

وقال سُبحانَه: تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ [إبراهيم: 23].

وقال تبارك وتعالى: سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ [يس: 58].

وقال جلَّ جلالُه: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا [الواقعة: 25، 26].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ﴿76﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا وَعَدَ سُبحانَه بالمنافِعِ أولًا، وبالتَّعظيمِ ثانيًا؛ بيَّنَ أنَّ مِن صفتِهما الدَّوامَ.

(خَالِدِينَ فِيهَا) أي: ماكِثينَ في الغُرَفِ، لا يموتونَ، ولا يُخرَجونَ منها. موسوعة التفسير

(حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) أي: حَسُنَت تلك الغُرَفُ قرارًا لأهلِها، ومكانَ إقامةٍ لهم. موسوعة التفسير

وقال القاسمي: (لسَلامةِ أهلِها عن الآفاتِ، وخلودِهم أبَدَ الآبادِ).

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ ﴿77﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن عاشور: لَمَّا استَوعبتِ السورةُ أغراضَ التَّنويهِ بالرِّسالةِ والقرآنِ، وما تضمَّنَتْه مِن توحيدِ اللهِ، ومِن صفةِ كبرياءِ المعانِدِين وتعلُّلَاتِهم، وأحوالِ المؤمنين، وأُقيمتِ الحُجَجُ الدامغةُ للمعرِضِينَ؛ خُتِمَتْ بأمرِ اللهِ رسولَه عليه الصلاةُ والسلامُ أنْ يُخاطِبَ المشركينَ بكلمةٍ جامعةٍ يُزالُ بها غرورُهم وإعجابُهم بأنفُسِهم؛ فبَيَّنَ لهم حقارتَهم عندَ اللهِ تعالى، وأنَّه ما بَعَثَ إليهم رسولَه وخاطبَهم بكتابه إلَّا رحمةً منه بهم لإصلاحِ حالِهم، وقطعًا لعُذْرِهم، فإذا كذَّبوا فسوف يَحُلُّ بهم العذابُ .

قال السعدي: وأيضًا لَمَّا كان اللهُ تعالى قد أضاف هؤلاءِ العِبادَ إلى رحمتِه، واختَصَّهم بعبوديَّتِه لِشرَفِهم وفَضلِهم؛ رُبَّما توهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّه: وأيضًا غيرُهم لِمَ لا يدخُلُ في العبوديَّةِ؟! فأخبَرَ تعالى أنَّه لا يُبالي ولا يَعبَأُ بغيرِ هؤلاء، وأنَّه لولا دعاؤُكم إيَّاه دُعاءَ العبادةِ ودُعاءَ المسألةِ، ما عبأَ بكم ولا أحَبَّكم، فقال:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ) أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمَن أُرسِلتَ إليهم: لولا دُعاؤُكم إيَّاه لَمَا بالى، ولا اكترَث بكم. موسوعة التفسير

(فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا) أي: فقد كذَّبتُم -أيُّها المشرِكونَ- بالحَقِّ، فسوف يكونُ العذابُ مُلازِمًا لكم في الدُّنيا والآخرةِ؛ جزاءَ تكذيبِكم. موسوعة التفسير

إن من أفضل العبادات: عبادة الدعاء، الذي يكثر من الدعاء في الجملة أقرب وأحب إلى الله -تعالى- من الذي يقل منه، ذلك أن الدعاء دليل صلة قوة العبد بربه، وثقته به، وإحسان ظنه به، بل لولا الدعاء لَمَا بالى ربنا بنا: (قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ) [الفرقان: 77].

ألم تروا أن الله -تعالى- يربينا على التزام الدعاء في جميع شئون حياتنا، فلا يكاد يخلو عمل ما، من دعاء خاص به، هكذا علمنا النبي -ﷺ-.

هناك دعاء للنوم، وللاستيقاظ من النوم، ورقية المريض، ولدخول الحمام، والخروج منه، ولتناول الطعام، والانتهاء منه، وعند الخروج من البيت ودخوله، وعند شراء الدابة، وركوب السيارة، ولدخول السوق، ولدخول المسجد، وللخروج منه، وللصباح أذكار وأدعية، وللمساء أذكار وأدعية، وللسفر دعاء، وللعودة من السفر، وللحلول في مكان، وعند اشتداد الرياح، وعند نزول المطر، وللتهنئة بالزواج، بل وحتى للمعاشرة دعاء.

وهكذا يكون المسلم مرتبط بربه في يومه وليلته، لا يكاد ينفك عنه طوال حياته، ومهما كان شأن المسلم قويا، أو ضعيفا، غنيا أو فقيراً، عالما أو جاهلا، مهما كان شأنه، فهو في أمس الحاجة إلى الصلة بربه، خالقه وبارئه، وولي نعمته على الدوام، ولا تتحقق مثل هذه الصلة الدائمة إلا بهذه العبادة العظيمة، لذلك يثني الله على أنبيائه بالدعاء: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) [الأنبياء: 90].

فإذا حفظ العبد أوامر الله حفظه الله ونصره على أعدائه وبسط له في الرزق وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغبة، ومن غفل عن أوامر الله، ولم يحافظ عليها في هذه الحياة القصيرة التي هي في الحياة الآخرة كساعة من نهار أو كلمح البصر فقد عرض نفسه لغضب الله ومقته ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: 77]

قال ابن كثير –رحمه الله–: عند تفسير هذه الآية: أي لا يبالي ولا يكثر بكم إذا لم تعبدوه حق عبادته، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلًا، ويقول مجاهد: ما يعبأ بكم ربي ما يفعل بكم أي ما يحله بكم من الضيق والفتن والأمراض وتسليط الأعداء وتمزيق الصفوف ونزول الكوارث من احتباس القطر والزلزال والفيضانات والأعاصير المهلكة للحروث والأشجار والثمار ونحو ذلك من الآفات كل ذلك بسبب الإعراض عن الله وعدم المحافظة على أوامره والابتعاد عن مناهيه فاحفظوا أوامر الله يا عباد الله يحفظكم ويدفع عنكم البلاء، ويحله بمن عصاه، ومروا بالمعروف واعملوا به وانهوا عن المنكر وابتعدوا عنه فإن الآمر بالمعروف إذا لم يتصف به أمر به والناهي عن المنكر إذا لم يبتعد عما ينهى عنه فإنه ربما لا يقبل منه ويكون ذلك مدعاة إلى الوقوع فيه بالسخرية والاستهزاء فيأثم هو ويؤثر غيره.

أقبلوا على ما كلفتموه من إصلاح آخرتكم، ولا يشغلنكم عنه ما ضمن لكم من أمر دنياكم، ولا تستعملوا جوارح غذّيت بنعم الله في التعرض لسخطه بمعصيته، واصرفوا همكم في التقرب إليه بطاعته والتماس مغفرته، فإن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم أقوام تميزوا عن سائر الأنام ببعد النظر، والاهتمام بإصلاح دار المستقر. يهدمون دنياهم فيبنون بها آخرتهم، ويبيعون ما يفنى فيشترون به ما يبقى لهم، نظروا إلى أهلها المفتونين بها فإذا هم صرعى من أجلها، قد حلت بهم المثلات فأصبحوا لغيرهم من جملة العبر والعظات؛ فأقبلوا على الله مخلصين له على طريق هداه، واستعانوا به على بلوغ المقصود وحصول المأمول؛ لعلمهم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولذلك فازوا بالسبق للخيرات، والثناء عليهم في

القرآن بجميل الصفات، نسأل الله العلي العظيم أن يجمل بصفات عباد الرحمن وأن يجعلنا منهم، ويحشرنا في زمرتهم مع سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات